ملك الانكليز وامبراطور الالمان

كتبت كونتس وورك[1] مقالة في هذا الموضوع في مجلة نش الانكليزية ضمنتها حقائق جمة عن الملك ادورد السابع المتوفى وعن الامبراطور ولهلم الحالي وعلاقة كلٍّ منهما بسياسة اوربا فرأينا ان نقتطف منها ما يأتي :

منذ ابتدأت هذه الحرب قرأت خلاصات كثيرة من الجرائد الالمانية ومن مقالات في الجرائد الاميركية بافلام الالمان مفادها ان الملك ادورد بذل كل جهده في ما يأول الى القضاء على الامبراطورية الالمانية . وكنت احسب في اول الامر ان ما قرأته من هذا القبيل نفثة مصدور او مجازفات اناس يجهلون الحقيقة . ولكن لما رأيت ان ذلك تكرر مرة بعد اخرى خفت ان يرسخ في الاذهان كأنه حقيقة راهنة فجئت افنده بهذه السطور لاسيما واني تمتعت بثقة الملك ادورد قبل ارتقائه الى سدة الملك وبعده وسمعت من فيه مراراً كثيرة ما يدل على حقيقة رأيه في المانيا والالمان فصار من اوجب الواجبات عليّ ان اشهد بالحق الذي اعرفه دقماً لهذه الاوهام الشديدة الضرر . ولو خطر ببالي انه يمكن ان تشاع الاشاعات التي احاول نقضها الآن لكتبت الاقوال التي سمعتها من الملك ادورد في اوقات مختلفة وانا احدثه في بعض الشؤون السياسية الهامة ولكن ذاكرتي والحمد لله قوية جداً واني لأجد فيها ما يزن تلك الاوهام والاضاليل . وانا على ثقة تامة ان ما اقوله هو الحق الصراح الذي لا ريب فيه

ان من اقدم ما اتذكره اني أخذت مراراً وانا صغيرة الى السفارة الالمانية لزيارة الامبراطورة اوغسطا (جدة الامبراطور الحالي) وأخذي اليها مراراً يدل على ان الامبراطورة اوغسطا زارت انكلترا غير مرة لشدة صداقتها للملكة فكتوريا . وكان كل احد يحترم الامبراطور ولهلم الاول ويحب بوني عهده البرنس فردريك . ولما اقترن هذا البرنس بابنة الملكة فكتوريا الكبرى وكان أخوها الملك ادورد[2] يعزها أكثر من سائر اخوانه اشتدت ربط الصداقة والحب بين البلاط الانكليزي والبلاط الالماني

وكانت الملكة فكتوريا تحب المانيا والالمان وتعبد حفيدها (الامبراطور ولهلم الحالي) وتعتقد انه معصوم عن الخطإ ولكن الملكة الكسندرا زوجة الملك ادورد دنمركية

(1) Countess of Warwick

(2) يلقبه بالملك ادورد دائماً ولو قبل صار ملكاً

فكانت تكره المانيا لانها لم تنسَ ما فعلتهُ بالدنمارك اذ سلبت منها ولاية شلسويك هولشتين وكذلك كانت اختها امبراطورة روسيا ولكني لم اسمع قط انهما اشتركتا في دسيسة ما ضد المانيا

وكبر البرنس ولهلم وبلغ سن الرشد ولا احد يحسب لهُ حساباً من حيث السياسة لان اباهُ كان يملأ العين مهابةً والنفوس اعجاباً واما هو فغاية ما في الامر انهُ كان حفيد الملكة فكتور يا المحبوب منها ولم يخطر على بال احد انهُ يجلس على عرش الملك قبلما يصير كهلاً لان مرض ابيهِ لم يكن في الحسبان

ولكن ان لم يكن في البلاط الانكليزي شيء من العداوة لالمانيا فلم يكن البلاط الالماني خالياً من العداوة لانكلترا لان وجود امرأة انكليزية في البلاط الالماني ينتظر ان تصير امبراطورة المانيا لم يكن مما يرضى بهِ الالمان لاسيما وانهم كانوا يعتقدون ان تزوجها لولي عهد المانيا كان الغرض منهُ ان تصير المانيا تابعة لانكلترا . وزاد قلق الالمان لما توفي الامبراطور ولهلم الاول . ثم لما توفي ابنهُ الامبراطور فردريك بعد بضعة اشهر كان كره الالمان للانكليز قد بلغ اشدهُ وسرى سمهُ الى ذهن الامبراطور الشاب حتى اقصاهُ عن امهِ فلم يبرّ بها بل اساء اليها فشكت امرها الى اخيها وكان لا يزال ولي العهد وكانت اعز اخواتهِ عليهِ كما تقدم فاغتاظ من ذلك وجاهر بما في نفسهِ من الغيظ . ولم تكن العلاقات على ما يرام بينهُ وبين ابن اختهِ للسبب التالي

لما شبَّ الملك ادورد وتزوج ودَّ ان يلتفت الى امور الملك ويشارك امهُ فيها فجعل يتعلَّم ويعاشر رجال السياسة قاصداً ان يشتغل معهم لكن امهُ ابت عليهِ ذلك ولم ترضَ ان يدخل مجالس مشيرها وامرت وزراءها ان لا يطلعوهُ على شيء من اوراق المملكة عازمةً ان تبقى السلطة في يدها وحدها . ولابدَّ من انها خسرت بذلك خسارة كبيرة لان الملك ادورد كان شديد الفراسة كانهُ من الشعب السامي[1] . كان المعيَّا قوي البداهة حاضر الذهن انيس المحضر على غاية الظرف والادب وكان الواجب ان تستفيد البلاد من هذه المناقب . ولكن الملكة فكتوريا لم ترَ ذلك فاضطر ان يشغل نفسهُ بما يرفع مقام الانكليز بين اهل الاذواق فزاد ابتهاج الناس بهِ والتفافهم عليهِ حتى خُيِّل للناظر انهُ سيكون لهُ شأن عظيم في السياسة حينما تلقى اليهِ مقاليدها

اما الامبراطور ولهلم فكان عريّاً من كل هذه الصفات التي امتاز بها خالهُ . كان كثير الاشتغال شديد الحرص كثير التبرُّم قليل التسامح شديد التقلُّب كانهُ وخالهُ على طرفي

(١) اي العرب والسوريين والاسرائيليين

نقيض . وكثر حديث الناس بهذه الامور فاغتاظ منها وحقد على خالهِ لانهُ رآهُ حائزاً على اعجاب الناس واحترامهم عفواً من غير تعمُّل

وهناك سبب آخر وهو ان الامبراطور ولهلم كان في معيشتهِ وسيرتهِ ضيقاً متعصباً واما خالهُ فكان واسعاً سموحاً يسابق ويصطاد ويلعب ويزور ويزار ويختار الاصدقاء من كل الطبقات . وقد هفوات كثيرة رغماً عمَّا امتاز بهِ من الفراسة والذكاء فتسلَّح ابن اخته بها للانتقاد عليهِ باقوال قالها علانيةً وكان السعاة يأتون خالهُ بهذه الاقوال مصقولةً مكبَّرةً

قلت ان الملك ادورد كان على جانب عظيم من كرم الاخلاق ولكنهُ هفا هفوات كثيرة من ذلك مصادقتهُ للبارون هرش فان هذا البارون كان رجلاً ظريفاً وزوجتهُ من فضليات النساء وهي من اعز اصدقائي ولكنهُ كان يستسهل كل صعب في سبيل الكسب فجمع ثروةً طائلة بطرق محلَّلة وغير محلَّلة ممَّا يطول شرحهُ ومع ذلك كانت لهُ مبرات تستحق المدح . وكان الملك ادورد ينظر اليهِ من هذا الوجه واملهُ خدم الملك ادورد في بعض الشؤون وهو لا ينسى احداً خدمهُ في امر مهما كان ولا كان ينسى صديقاً . اما المانيا فازدرت البارون هرش والفتهُ اغتاظت منهُ لانها تقيس الانسان بنسبهِ لا بحسبهِ واذا جمع مال قارون باشرف الطرق واحلَّها بقي في عينيها احط من ذي النسب العالي ولو كان من الحُمق المفاليس . لكن الملك ادورد عزَّاً بغيظ فيها وازدراه برلين وقال لاحد معارفهِ اني لا انيط اختيار اصدقائي بهاتين العاصمتين . واثبت ذلك بانهُ قبل دعوة البارون هرش ليذهب ويصطاد في املاكهِ الواسعة في ايشرن (بالنمسا) فذهب ولكنهُ لم يجد هناك من المدعوين غير الانكليز كأن الالمان والنمسويين لم يلبُّوا الدعوة ان كانوا قد دُعوا . ثم زار البارون هرش في باريس . واملهُ لم يكن من الصواب مقاومة العادات المألوفة ولكن الانكليز لم يكونوا في وقت من الاوقات مقيدين بالعادات كاهالي ڤينا وبرلين . والغالب اننا نقبل دعوة كل من يدعونا اذا كان ذا ثروة كافية للانفاق علينا

اما الامبراطور ولهلم فاغتاظ من خالهِ لانهُ خالط غنيًّا عصاميًّا واغتاظ منهُ ايضاً لانهُ مضى الى همبرج واقام طويلاً مع اختهِ الامبراطورة في قصرها هناك وكانت في قد جملتهُ مشكي ضيمها منذ صغرها لان امها كانت تتحصَّب عليها وتجرب لفيدها وتقرِّع ولي عهدها بهِ كأنها تقول لهُ انظر الى فضائل ابن اختك فهي المثالب التي يجب ان يتحلَّى بها الرجال . ويقضي عليَّ الانصاف ان اقول ان الامبراطور ولهلم كان يحب جدتهُ جدًّا وقد حزن عليها حزناً شديداً و يا حبذا لو احبَّ والدتهُ كذلك

وكان ذهاب الملك ادورد الى همبرج قذى في عيني ابن اخته كما تقدم ثم لما ذهب الى مريناد في النمسا بدلاً من الذهاب الى همبرج في المانيا زاد القلق في برلين لان ساسة الالمان كانوا يعرفون مقدرتهُ على اجتذاب القلوب فخافوا ان ينفصم عرى المحالفة الثلاثية . وكان يحبُّ النمسويين ويعجب بذكائهم واخلاقهم واذواقهم ومهارتهم في الصيد والقنص ونحو ذلك من الصفات التي كانت تروق لهُ وكان يحسب كثيرين من النمسويين بين اخص اصدقائهِ ومنهم الامبراطورة والكونت منسدرف وبيت بثياني وبيت لاريش وغيرهم . ولا ازال اتذكر قولهُ لي ان ليس في الدنيا الطف من النمسويين . ولكن قلق الامبراطور ولهم لم يكن في محلهِ لان خالهُ لم يكلم احداً حينئذٍ في المسائل السياسية

يظهر مما تقدم ان الخلاف بين الامبراطور وخالهِ لم يكن الاَّ من قبيل الاختلافات العائلية وقد سمعت الملك يتكلم بغيظ عن ابن اخته لانهُ لم يحسن معاملة امهِ لا لسبب آخر . وقال غير مرة ان ابن اخته كان مصاباً بداء حب المبالغة ولم يتعلَّم ان يلجم لسانهُ . ولكنني لا اتذكر مطلقاً اني سمعت منهُ شيئاً يدلُّ على انهُ كان يقصد الشر لالمانيا او يريد بها ضرًّا وغاية ما في الامر انهُ كان يقول ان الالمان ثقلاء

وكان سفراء روسيا وفرنسا من الذين يترددون على قصرهِ واما سفراء المانيا فلا ولا يستثنى من ذلك الاَّ البرنس هنزفيلد . ومن المحتمل ان كراهة الملكة الكسندرا لتصرُّف الالمان مع شعبها جعلت سفراءهم يقللون التردُّد الى قصرها وزيارات لامبراطور الاولى لانكلترا لم تبقِ في ذهني اثراً مخصوصاً . نعم اني اتذكر انني رقصت تجاههُ في قصر بكنهام في رقصة الكراديل وتشيت معهُ في وليمة اولمت لهُ وكان يظهر الصداقة بنوع خاص لنساء جماعة البيوت الملكية

وقد كان الملك ادورد منصفاً في كل ما ينتقد بهِ غيرهُ حتى انهُ لما كان يتكلم على ما بين اختهِ وابنها من الخلاف كان يلقي اللوم على ما بينها من اختلاف الطباع والمشارب . وكان يُعجب بالامبراطورة زوجة ابن اختهِ كما يعجب بها كل من عرفها وعرف اعمالها الفاضلة وحب شعبها لها واحترامهم اياها

ولما توفيت الملكة فكتوريا تحسنت العلاقات كثيراً بين الامبراطور وخالهِ فانهُ جاء الى انكلترا لحضور الجنازة وتصرَّف احسن تصرُّف ولحظ ذلك كل اهل البلاط . وتكلم معي الملك ادورد في هذا الشأن مظهراً سرورهُ . والظاهر ان ما ابدتهُ فرنسا من الغيظ منا وقت حرب البوير قرَّب الالمان الينا . واتذكر انني كنت خارجة من تياتر في باريس ذات

ليلة مع لورد روزبري فحيّاها الناس بقولهم ليحيَ البوير ويسقط تشمبرلين . وصُوِّرت الملكة فكتوريا بصورة هزلية قبيحة فيها دوق دورليان الرجل الذي صورها كذلك . وكان الملك ادورد يخالف امهُ في امور كثيرة وكثيراً ما حدثني في مواضيع الخلاف بينهُ وبينها ولكن احترامهُ لها لم ينقص ذرةً فلم يصفح عن دوق دورليان بعد ذلك وقد حاول الدوق ان يعتذر اليهِ ويصطلح معهُ فاغضى عنهُ

ثم ان التلغراف الذي ارسلهُ الامبراطور ولهلم الى كروجر قبلما شبت حرب البوير كان لهُ اثر سيء جدًّا ولكن الامبراطور عاد بعد ذلك فلزم الصمت فزال الغيظ من نفس خالهِ . ثم تحسنت العلاقات بينهُ وبين خالهِ بعد موت الملكة فقال الانتقاد او صار يلزم جانب الحكمة في انتقادهِ وعاد الى الصفاء التام بعد ما حاول احد الفوضويين اغتيال الملك فانهُ اسرع الى حدود بلادهِ ولاقاهُ وهنَّأهُ بالسلامة . وكتب اليَّ الملك بعد رجوعهِ يشكرني لاني ارسلت اليهِ تلغرافًا اهنئهُ بهِ واخبرني في كتابهِ ان الامبراطور جاء من برلين الى التونا لكي يسأل عن صحتهِ ثم قال انهُ يحسب ذلك لطفًا منهُ

واتذكر ان زيارات الامبراطور لانكلترا صارت بعد ذلك تقابل بالرضاء التام وقد قال لي الملك لما كان الامبراطور نازلاً في هايكلير التمسَ لصحة انهُ صار غاية في الظرف وحسن المسايرة وزال منهُ ما كان يرى فيهِ قبلاً من القلق وسرعة الانفعال . وكانت العلاقات على اتم المودة بين الملك جورج وزوجتهِ الملكة وبين الامبراطور ولهلم ولما ذهب الملك جورج وامهُ الملكة الكسندرا الى برلين زائرين سرَّا جدًّا بزيارتهما كما اخبراني

ورب قائل يقول اذا كان الامر كذلك فكيف نعلل الاتفاق بين انكلترا وفرنسا سنة ١٩٠٤ ، واجتماع الملك ادورد وقيصر روسيا في ريفال حيث وُضع اساس الاتفاق الحربي بين انكلترا وروسيا . فان الالمان يعتقدون ان الغرض من ذلك كان الاتفاق على المانيا وهذا يثبت عداء الملك ادورد لها . اما الملك ادورد فانهُ جرى في الامرين على رغبة وزرائهِ كما يجب على كل ملك دستوري . وقد سألتهُ بعد اجتماع ريفال عن رأيهِ في الحالة السياسية واتذكر انهُ قال لي ما نصهُ « ان المانيا تناظرنا في التجارة والالمان من اقدر الناس في ادارة الاعمال واذا زاد غناهم وقام فيهم ساسة مغرمون بالاقدام على كبائر الامور فقد تتحوَّل هذه المناظرة الى مزاحمة ومخاصمة ولكني ارجو ان الاتفاق الفرنسوي والاجتماع في ريفال يمنعان حصول ذلك . ولم يحدث حتى الآن شيء يمنع الاتفاق بين لندن وبرلين وعندي ان كل العقلاء يودون السلم ونحن لا نرى سببًا يدعونا لمخاصمة المانيا او غيرها من الدول »

وقد استاء الملك ادورد مما حدث للسير دلكاسه بعد مؤتمر الجزيرة لانهُ كان يحسب ان الاتفاق مع فرنسا من اقوى دعائم السلم وكان يحب بالمانيا كما كان يحب فرنسا ثم كان يحب بتدقيق الالمان في اعمالهم وبعدهم عن السخائف في افكارهم وافعالهم

وزارني مرة قبل وفاتهِ بثلاثة اشهر أتى لتناول الشاي عندي وتكلم عن الادارة الالمانية فقال «لو كانت بلادنا تدار كما تدار المانيا لاستفدنا فائدة كبيرة · وياحبذا لو حكمنا الالمان المدة الكافية لاصلاح ادارتنا» قال ذلك وصمت قليلاً ثم قال وهو يضحك «ولكن المصيبة انهم اذا اتوا ليحكمونا تعذَّر علينا الخلاص منهم» وهذا آخر حديث جرى لي معهُ لاني لم ارهُ بعد ذلك · وكلامهُ هذا يدل على انهُ لم يكن يضمر العداء لالمانيا بوجه من الوجوه

ان العمر الطويل الذي عاشهُ الملك ادورد والاختبار الواسع الذي لم يُفقهُ فيهِ احد من معاصريهِ جعلاهُ فيلسوفاً في المراقبة والملاحظة ولم يكن يدَع امياله الشخصيَّة تحول بينهُ وبين ما يُطلَب منهُ كملك · ولكن ان كانت آراءهُ الشخصيَّة قد اثَّرت في سياستهِ فلا يكون ذلك ضد المانيا كما يظهر من كل ما سمعتهُ منهُ عنها · وانتقادهُ عليها الذي اتذكر اني سمعتهُ منهُ قد ذكرتهُ كلهُ هنا فانهُ كان يحبُّ اصدقاءهُ الفرنسويين والنمسويين ويحترم معارفهُ الالمان · وكان ابنهُ المتوفَّى دوق كلرنس مثلهُ من هذا القبيل · ثم انهُ كان يكره الحرب وكل اسبابها ويحسب ان الرجال الذين يرغبون فيها مختلو الشعور يجب ان يوضعوا في بيمارستان المجانين · وكان يحب باساليب العمران ويرى في الحرب قوة عمياء تقوِّض دعائمهُ وتترك العالم خرابًا · وكانت همتهُ موجهة الى اصلاح شأن العامة واستئصال زخارف الملك لما حرمتهُ من المجاهرة بآرائهِ مع ان اصغر واحد من رعاياهُ لا يحرَم منها · وجعل شغلهُ الشاغل ان يعرف كيف حالت المانيا مشكلة العمال الذين لا عمل لهم من حيث انشاء المنازل للسكنى وادارة المعامل التي يعملون فيها · وكثيراً ما تكلَّم عن نجاح المانيا من هذا الوجه وكان يتكلَّم عنها معجباً بها لا ناقماً عليها ولا راغباً في اذلالها · واني واثقة تمام الثقة انهُ لو بقي الى سنة ١٩١٤ : ما نشبت هذه الحرب لان نفوذهُ الشخصي كان كافيًا لترجيح السلم على الحرب والتوفيق بين المصالح المتضادة ولو في الساعة الاخيرة لانهُ كان مكرَّمًا محترمًا لدى كل ملوك اوربا وحكامها وما منهم مَن لا ينقاد لرأيهِ · وما الذين يزعمون زوراً وبهتانًا انهُ هيأ السبل لقتل افضل الرجال واشجعهم الاَّ آثمون يتم زعمهم على جهلهم المطبق